قيام الدّولة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي (نقلة نوعية للمهدوية من فضاء التّنظير لتأسيس الدّولة إلى ظهورها وترقيتها إلى مصاف خلافة إقليمية بديلة).

د/ شرقي الرزقي
جامعة تلمسان

ملخص:

يزخر تراث الفكر السّياسي الإسلامي القديم بحركات دعوية، إصلاحية كثيرة، تسعى إلى بناء دولة، أو إقامة خلافة على مذهب "السّلف الصّالح"، حيث تتناول هذه الدّراسة تجربة "المهدوية" ودورها في تأسيس الدّولة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي، وأثرها في حركات دعوية أخرى بالمنطقة لاحقا، وتوضيح كيف وظّفها بعض الدّعاة هناك، والاستفادة منها في إنجاح مشروعاتهم السّياسية الطّموحة، كالمهدي بن تومرت إمام الموحدين، وفشل البعض الآخر في مجاراتها، كما هو مفصل في موضعه من مضمون هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: المهدوية؛ الدّولة الفاطمية؛ الإسماعيلية؛ الفكر السّياسي؛ المغرب الإسلامي

مقدمة:

"المهدوية" بمنظورها الفكري العميق* هي على ثلاثة أبعادٍ رئيسيةٍ، متكاملة فيما بينها: "المهدوية كعقيدة دينية"، وهي ظاهرة ثقافية راسخة في عقائد مجتمعات أهل الكتب السّماوية من يهود، ونصارى، ومسلمين على قدم المساواة، إذا ما أُقتصر النّظر على الأسس العامّة لهذا المعتقد، دون الخوض في تفاصيله الدّقيقة، المتباينة بحكم جملة من الاعتبارات ليس هاهنا مكان للوقوف عندها بين الدّيانات الثّلاث؛ بل يتعدّاه إلى أمم شرقية أخرى مثل الدّيانة الزّردشتية، المبنية على أسس فكرية وفلسفية عميقة بحضارة فارس القديمة؛ وثانيها "المهدوية كمذهب فكري" فاعل في حقل التّراث الإسلامي العريق، كما يمكن لمس ذلك عن قرب في تسجيل حضوره القويّ في الحياة الفكرية لدى المسلمين منذ نهضتهم العلمية الأولى، واستمرارها إلى يومنا هذا، وكذا أثرها البارز في ترقية وتنمية التّيار الفكري، والفلسفي في المجتمع الإسلامي؛ وآخرها "المهدوية كتيار سياسي" مُتجدّد مع مرور الزّمن، يَسعى جاهدا إلى إصلاح الأوضاع العامّة، المتردية بفعل اعتداء بعض النّاس على منهج الإمامة (نهج الله

السّليم)، وتعويضه بنهج المُلْك الذّي ملأ الأرض ظُلْمًا وجُورًا، كما مُلئت عَدلاً وإخاءً أيام النّبوة من قبل.

وإذا كان هذا التّيار الأخير (التّيار السّياسي)، قد حقّق ملاحم بطولية في التّاريخ السّياسي، والحضاري الإسلامي مشرقا ومغربا على قدم المساواة، كما هو مدوّن في مَوْضعه من بطون مصادر التّاريخ الإسلامي، فإنّ نضاله المستميت لم يكن بالشّيء الهيّن، ولا بالانتصار الدّائم، حيث كانت باكورة ثماره، قيام الدّولة الإسماعيلية الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي على صعيد الخلافة الإسلامية برمتها، فاتحة بذلك المجال على مصراعيه أمام قيام دول مماثلة في اليمن، والعراق وبلاد فارس، ناهيك عن المشروعات الأقلّ أهمية في بقية أصقاع العالم الإسلامي برمته.

والحقيقة أنّ نجاح المشروع السّياسي الإسماعيلي ببلاد المغرب، بعيدا عن مركز الخلافة الإسلامية، لا يكمن في التّمهيد لقيام دول مماثلة في أقاليم أخرى من ديار الإسلام الفسيحة فحسب، بل تعدّاه إلى نقل تصوّرات هذا التّيار السّياسي من أُفُق "التّنظير المجرّد"، المنحصر في أذهان فئة النّخبة من المجتمع إلى رِحاب "المشروع الحضاري البديل"، الواجب تعميم مبادئه على العامّة من الرّعية، كما هو متجلٍّ في تطلّعات الفواطم لخلافة العالم الإسلامي بأسره، عقب رحيلهم من المغرب الإسلامي إلى مصر؛ فكيف حدث ذلك يا تُرى؟

1). افتتاح الدّعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب الإسلامي*:

هناك مَنْ يَنعت بلاد المغرب باسم "جزيرة المغرب"، كناية عن محاصرتها ببحر الظّلمات (المحيط الأطلسي) من الغرب، والبحر المتوسط من الشّمال، والصّحراء الإفريقية المترامية الأطراف من الجنوب؛ غير أنّ هذه الحواجز الطّبيعية المنيعة، لم تحل بين المغرب وبين انفتاحه على نظيره المشرق شرقا ضمن رِواقٍ طويل، موازٍ للبحر المتوسط وتلال الصّحراء الإفريقية، ومدّ جسرٍ للتّواصل بين الطّرفين، كثيف الحركة طيلة القرون الوسطى[1]، ولعلّ ممّا ساعد على ذلك هو: وجود الأماكن المقدسة، وعاصمة الخلافة الإسلامية بالمشرق، وتمركز مراكز التّعليم، والجامعات الكبرى في تلك الأقطار، أضف إلى ذلك رواج أسواق التّجارة من كلّ نوع هناك، وبعبارة واحدة عاد المشرق في تلك الأثناء بمثابة مركز استقطاب للمغاربة من مختلف شرائح المجتمع بامتياز.

ولذلك لم يكن المغرب بالمرّة في معزلٍ عن التّطورات، والتّجاذبات المتعدّدة الأبعاد، التّي شهدها المشرق على مختلف الأصعدة (السّياسية، والعسكرية، والفكرية، وغيرها)، كما قد

يتوهم البعض؛ وبصرف النّظر عن طبيعة التّفاعل القائم بين الطّرفين، حيث بدَا المشرق في هذه التّوليفة كمُصَدِر لمشروعات جاهزة منذ مرحلة الفتح المُبكّرة إلى غاية سقوط الخلافة، لاسيما في مجال الفكر -موضوع هذه الدّراسة- فيما ظهر المغرب في شكل المُسْتهلكِ لتلك المنتجات المشرقية في معظم الأحيان، حيث كانت تصله إمّا بتنقلات الأشخاص من دعاة، وعلماء، وطلبة علم، وتجار، وغيرهم بشكل مباشر، أو بطريقة غير مباشر، انطلاقا من تبادل المؤلّفات العلمية بين الطّرفين.



الخارطة (01): أسماء المناطق التّي شملتها الدّعوة الإسماعيلية على حدّ ما أورده القاضي النّعمان في كتابه، نقلا عن: الدّشراوي.

ومهما كان من أمر، فقد تلقّى أهل المغرب الدّعوة الإسماعيلية* واحتضانها في حياة جعفر الصّادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، المتوفى عام (148هـ/764م)[2]، إذا ما وُثِق بصحّة رواية القاضي النّعمان، الذي جعل دخول الدّاعيتين: الحُلواني، وأبي سفيان بلاد المغرب في عام (145هـ/761م)[3]، أي قبل موت جعفر الصّادق بنحو ثلاث سنوات بصرف النّظر عن باعثهما إلى هناك، إن كان بأمرٍ من أبي عبد الله جعفر بن محمد ذاته، أو بمبادرة خاصّة من إخوانهم في النِّحلة باليمن على حدّ اختلاف الرّوايات التّاريخية في هذه المسألة[4].

فقد كان لهذين الدّاعيتين تعليمات صارمة بخصوص "قلب الأرض"، أو حرثها في انتظار قدوم "صاحب البذر" مستقبلاً، حيث رَحَلاَ سويًا إلى بلاد المغرب، وعبرَا أراضي أفريقية (القطر

التونسي حاليا)، مقرّ حكم الإقليم قبل أن يفترقَا بمجرّد توغلهما في مناطق انتشار الأهالي من الأمازيغ مع حرصهما الشّديد على بقائهما بعيدين عن بعضهما بعضا، وعن مراكز نفوذ الحكم المركزي، استجابة للتّعليمات التّي تلقوْها من قبل بالمشرق.

ولذلك لما بلغَا مرماجَنّة (الخارطة: 01)، نزل أبي سفيان بين أهلها في مَوْضع يُقال له "تالا"، حيث تزوّج منهم، وابتنى لنفسه مسجدا لمباشرة الدّعوة هناك؛ فيما واصل رفيقه الحلواني التّوغل في اتجاه الغرب إلى أن بلغ مكانًا يُعرف باسم "النّاظور" وفعل مثل ما فعل زميله في "تالا" تماما[5]؛ وأبدى كلّ واحد منهما وَرَعًا وحسن معاشرة مع أهله وخَدَمه، حتّى طبقت شهرتهما الآفاق، وعاد النّاس ينسلون عليهم من كلّ حدب وصوب لسماع منهما فضائل أهل البيت، ويأخذون عنهما تعاليم الدّعوة الجديدة[6].



الخارطة (02): أسماء القبائل التّي شملتها الدّعوة الإسماعيلية
على حدّ ما أورده القاضي النّعمان، نقلا عن: الدّشراوي.

فتشيّع على يديْ الأوّل أهل مرماجنة، وصارت هذه الأخيرة "دار شيعة" على حدّ تعبير القاضي النّعمان، كما تشيّع على يديه أيضا أهل الأربس، وأهل نفطة؛ فيما تشيّعت قبائل كتامة، ونفزة، وسُماتة (الخارطة: 02) على يدي الثّاني[7].

والأهم من كلّ ذلك، أنّهما مكثَا وقتا طويلا في الدّعوة، قبل أن يتوفَاهما الأجل هناك، وتمهيد السّبيل إلى دُعاة آخرين لسدّ الفترة الزّمنية الفاصلة بينهما وبين صاحب البذر "عبد

الله الدّاعي"، حيث ناهزت مائة وأربعين (140) سنة كاملة. فقد لحق بهما من المشرق على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر أبي عبد الله أبو حيّون المعروف بأبي المفتش، الذي دخل بلاد المغرب بعد وفاة أبي سفيان، وقبل موت الحلواني[8]؛ ومحمد بن ورستد، الذّي توجّه إلى المغرب الأقصى، ودعا بني ماغوس في جبل درن؛ كما احتلّ كور قسطيلة بموجب ذلك مركز إشعاع الدّعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب بامتياز، وعادت نفطة منه تُعرف باسم "الكوفة الصُّغرى" إلى أن حلّ صاحب البذر بعد مرور أكثر من قرن وربع قرن من الزّمن[9].

2). دور عبد الله الدّاعي في إرساء دعائم الدّولة الفاطمية ببلاد المغرب:

قد لا يختلف اثنان في الدّور الفعّال الذي قام به عبد الله الدّاعي* في سبيل إرساء دعائم الدّولة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي، حيث يمكن تلخيص مجمل نشاطه منذ أن وطئت قدماه أرض كتامة، منتصف شهر ربيع الأول من عام (280هـ/893م) على حدّ رواية القاضي النّعمان، واستقراره عن طواعية واختيار بفجّ الأخيار -"فرجيوة" اليوم- لدى بني سَكْتَان، قرب مدينة ميلة الحالية شمال شرق الجزائر[10]؛ وإلى غاية دخوله مدينة رقادة بجوار القيروان، دار ملك بني الأغلب في أفريقية (184–296هـ/800–909م)، غرّة شهر رجب سنة (296هـ/909م)، وجلاء بني الأغلب عليها، ونزوله ببعض قصورها، وتوزيع دورها على أنصاره من أهل كتامة، وترتيب الخطباء في مساجدها، وضرب السّكة[11]، واتخاذ شارات الاستقلال والانتصار الجديدة في أربع نقاطٍ أساسية، هي كالآتي:

أ). بثّ الدّعوة الإسماعيلية في صفوف قبائل كتامة: شكّلت هذه الأخيرة الفترة الزّمنية الأطول في نشاط عبد الله الدّاعي بلا ريب على الرّغم من إحجام مصادر التّاريخ الوسيط عن تقديرها بشكل دقيق، وقد اتّسمت على وجه العموم بأخذ البيعة عن المنتسبين الجدد للدّعوة الإسماعيلية، وتلقينهم مبادئها سِلما في العلن والسّرّ على قدم المساواة، حيث لجأ عبد الله الدّاعي في هذا المضمار إلى مكان حصين، لا يبعد كثيرا عن فجّ الأخيار الآنف الذكر، يُعرف إلى اليوم باسم "إيكجان"، والذي يقع على بعد نحو كيلومترين فقط من بني عزيز شمال سطيف، واتخاذ منه مركزا حصينا لدعوته، بعيدا عن عيون، ومضايقات ولاّة الحكم المركزي الأغلبي بشرق بلاد المغرب الأوسط (الجزائر).

إذ كان ارتحاله من فج الأخيار إلى هناك برفقة أبي القاسم الورفجموي، وأبي عبد الله الأندلسي، اللّذان التقى بهما أوّل مرّة في سوجمار من أراضي سماتة قبل أن يصطحباه إلى بلاد كتامة، حيث حلّ جميعهم ضيوفا على حُرَيْث، وموسى أبي المفتش اللّذان التقى بهما الدّاعي في

مِنَى بعد انقضاء موسم الحج، وهما يتذاكران فضائل أهل البيت هناك، ويُلِحَّا عليه إلحاحا شديدا لمرافقتهما نحو كتامة، وتعليم كبارهم فضلا عن صغارهم[12].

وبفضل حنكته، وكياسته المتميّزة استطاع عبد الله الدّاعي أن يستميل قلوب الكثيرين من عامة أهل المنطقة، ويُكوّن أتباعا مخلصين، سمّاهم باسم "المؤمنين" لدرجة أنّه أثار حفيظة ولاّة الأغالبة في النّواحي المجاورة، مثل والي ميلة "موسى بن عياش"، المحاذي له من النّاحية الشّرقية، ووالي سطيف "عليّ بن عسلوجة"، المتاخم له من النّاحية الجنوبية، وحتّى "تميم" صاحب بلزمة، المتضايقون كثيرا من توسع الدّعوة الإسماعيلية على حساب مناطق نفوذهم الإداري، وتخوفهم من فقدان مناصبهم الإدارية جرّاء ذلك مستقبلا؛ تلك المخاوف، التي ما فتئت حدّتها ترتفع أكثر، فأكثر بعد رفعهم أمر الدّاعي للأمير الأغلبي بأفريقية من غير أن يُحرّك هذا الأخير تجاهه ساكنا[13].

وهو القلق الذي شاركهم فيه بعض وجوه، وأعيان قبائل كتامة ذاتها من الذّين رفضوا الانخراط في الدّعوة الإسماعيلية، كفتح بن يحيّ المسالتي، الملقب بـ: "الأمير"، ومهدي بن كتامة شيخ قبيلة لهيصة، وفرج بن حيران شيخ أجّانة، وثَميل بن فحل شيخ قبيلة لَطَّاية، الذين رأوا أن البساط يُسحب من تحت أقدامهم رويدا، رويدا من غير أن يستطيعوا فعل شيء، بعدما انتفض عليهم الكثير من الرّعايا، وانضمامهم إلى عبد الله الدّاعي وحركته الفتية[14].

عندها اتفق الفريقان (ولاّة بني الأغلب، وشيوخ القبائل الكتامية) على النّظر في هذا الخَطْب الدّاهم، ودراسة السّبيل الأنجع لإيقافه في الوقت المناسب، حيث انتهى بهما الاجتهاد إلى وضع حدّ لحركة الدّاعي بأية وسيلة كانت، حضرية مثل ترتيب له مناظرة مُفْحمة مع علماء يخاصمونه على مرأى ومسمع حشدٍ من النّاس، أو بسلوك غير حضاري كتدبير له مكيدة لتصفيته جسديا، إن لزم الأمر ذلك.

إلاّ أنّ عقبةً عويصة اعترضت خطّتهم، استوجب عليهم تخطّيها أوّلا، ألا وهي استمالة بعض وجوه بني سكتان في التّخلّي عن حماية عبد الله الشّيعي، وترك الأمر بينهم وبينه، فكان أوّل مَن اتصلوا به من بني سكتان هو "بيان بن صقلان" بوصفه أحد الوجوه الفاعلة غير المنتسبة للدّعوة الإسماعيلية؛ وبعد مساومات وإغراءات عديدة، انتهت الأمور بنشوب فتنة داخلية بين بني سكتان أنفسهم لبرهة من الوقت ليس هاهنا مكان لعرض تفاصيلها، قبل أن

تؤول الأحداث في نهاية المطاف إلى تخلّي هذه القبيلة عن حماية عبد الله الدّاعي، وتحميله على الرّحيل الاضطراري من إيكجان إلى "تازروت".

ب). منازلة معارضيه من بعض شيوخ كتامة وحلفائهم من ولاّة الأغالبة: لمّا بلغت هذه الأحداث، ذلك المستوى الخطير من التّطوّرات ببني سكتان، وتفشّي الأمر بين قبائل المنطقة، هبّ الحسن بن هارون العُصْمي، سيد قبيلة "عصمان" من موطنه إلى إيكجان في سبيل عرض خدماته الخاصّة على عبد الله الدّاعي، الذي تبنى دعوته في وقت سابق، لم تفسح عنه المصادر التّاريخية، المُعتمد عليها في هذا الصّدد[15]، حيث رغّبه في اللّجوء إليه بعدما توعده بالحماية، والنّصرة؛ فلم يتأخّر عبد الله في تلبية الدّعوة لِما أبداه هذا الرّجل من صدق نية، وصفاء سريرة، لاسيما وأنّ هذا الأخير، قد كان رجلا فاضلا، مسموع الكلمة في قومه، فارتحلاَ سويًّا نحو "تَازْرُوتْ"، وخُصّ عبد الله الدّاعي بحفاوة استقبال منقطعة النّظير هناك[16].

وفوق ذلك، وضع العصميون أموالهم، ورجالهم تحت تصرف ضيفهم الدّاعي، حيث بادر من حينه إلى إقامة "دار هجرة" على مستوى تازروت، وابتنى بها قصرا لإقامته الخاصّة، كما شيد منازلا لاستقبال أتباعه بأموالهم ورَحْلهم، استعدّادا لمنازلة خصومه من شيوخ القبائل المُعترضة على أمره، ومَنْ حالفهم من ولاّة بني الأغلب في المنطقة، بعدما أصبح الصّدام معهم حتمية لا مفرّ منها[17].

فاجتمع له بموجب ذلك خلق كثير، وأموال طائلة، وعُدّة لا تُعدّ ولا تحصى، مكّنته من الدّخول في مرحلة جديدة من مراحل دعوته بالمنطقة، ألا وهي مرحلة تأديب القبائل المعارضة بحدّ السّيف، وردّ عُدوان ولاّة الأغالبة عن مناطق نفوذ الدّعوة الإسماعيلية ببلاد كتامة، ووضع حدّ لاستفزازاتهم المتكرّرة.

ففي ظرف سنتين من الزّمن فقط، تمكّن عبد الله الدّاعي من إحكام سيطرته المطلقة على مجريات الأحداث، ووسعه الأمر في هذا الصّدد تكثيف هجماته على خصومه، وتحقيق انتصارات متتالية، أرغمت النّاس على اللّحاق بصفّه رغبة في ودّه، ورهبة من بطشه، وجمع غنائم كثيرة، تقوّت بها حركته، كما تمكن من ترويض معارضيه، وإجبارهم في نهاية المطاف على التّسليم بالأمر الواقع، بعدما فتح جلّ المواقع، ولم يعد يمتنع عنه غير مدينة ميلة الحصينة، ومن استعصم خلف أسوارها على حدّ رواية الرّقيق القيرواني، نقلا عن النّويري[18].

ج). الزّحف على مُلْك بني الأغلب في شرق بلاد المغرب الأوسط وأفريقية: بعدما استتبّ الوضع للدّاعية في صفوف قبائل كتامة، واطمئنانه إلى ذلك، حوّل وِجهة اهتمامه إلى

الدّولة الأغلبية، وولاّتها بشرق المغرب الأوسط وبلاد أفريقية، حيث كانت بين الطّرفين حساسية مفرطة منذ دخول عبد الله الدّاعي بلاد كتامة أوّل مرّة*؛ والتّي ما فتئت تتطوّر شيئا فشيئا إلى أن تحوّلت إلى عداوة شرسة بينهما في عقب فتنة بني سكتان الآنفة الذكر. فبدأ بالزّحف على حواضر الأغالبة، المتاخمة لموقع دار هجرته، الواحدة تلوى الأخرى إلى أن أتى عليها جميعا، ثمّ واصل توغلّه بخُطى ثابتة في أرض أفريقية إلى أن استولى على عاصمتهم مدينة رقادة بالقرب من القيروان، واضطرار زيادة الله الثّالث، آخر أمراء بني الأغلب في المغرب للنّجاة بما خفّ وزنه وغلا ثمنه، واللّجوء إلى المشرق بلا رجعة[19].

بدءً بمدينة ميلة، المحكمة التّحصين، التّي حاول واليها في وقت سابق الإيقاع بعبد الله الدّاعي هناك، لما دخلها خُلسة للتّداوي بمياه حمّامها المعدني من سُقْمٍ اعتراه، واضطرار هذا الأخير للنّجاة بجلده في الوقت المناسب[20]؛ مرورا بسطيف، وبلزمة، وطبنة، وتيجيس، وباغاية في المغرب الأوسط، والأربس بأفريقية، أكبر معقل لصد الاعتداءات الآتية من النّاحية الغربية على عاصمة بني الأغلب، وانتهاءً بمدينة رقادة ذاتها في نهاية المطاف[21].

وبالمختصر المفيد، ففي الوقت الذّي كان فيه بسط نفوذ عبد الله الدّاعي يتسع يوما بعد يوم في اتجاه الشّرق، بدءً من ضواحي بجاية في المغرب الأوسط، كان المُلْك الأغلبي يتقهقر، وينكمش أمامه بالسّرعة ذاتها إلى أن اضمحلّ وتلاشى تماما ببلوغ الدّاعي مشارف القيروان في الوَقْعة الحاسمة بينه، بين جيوش بني الأغلب.

د). تخليص المهدي من سجن بني مدرار وتأديب القبائل الزّناتية: بعدما استولى عبد الله الدّاعي على رقادة، ورتّب أمورها على النّحو المطلوب، بدأ يعدّ عدّته لأطول سفر في فتوحاته قاطبة، حيث كانت وجهته هذه المرّة غربا صوب سجلماسة بجنوب المغرب الأقصى لتخليص "المهدي" (عبيد الله الشّيعي)، وبكره أبي القاسم من سجن بني مدرار الصّفريين*، حيث استخلف أخاه محمد أبي العباس، وأبي زاكي تمام بن مُعارك الأجّاني على رقادة، وفي يوم الخميس منتصف شهر رمضان من عام (296هـ/909م)، كان خروجه إلى سجلماسة في موكب رهيب[22]، اهتزّ له المغرب بكامله، وزالت زناتة وبقية القبائل المجاورة لها عن طريقه بعدما أوقع هزائم فادحة في صفوف القبائل المعترضة لطريقه[23]؛ إلاّ أنّ أبرز انتصار حققه في هذه المسيرة الطّويلة قبل بلوغه سجلماسة، ودكّها على رؤوس بني مدرار فيما يبدو، هو دخوله مدينة تيهرت عاصمة الدّولة الرّستمية (160–296هـ/777–909م) في المغرب الأوسط، والقضاء عليها، قضاء مبرما[24].

وولّى عليها من جهته أبي حميد دوّاس بن صولات اللّهيصي، وإبراهيم بن محمد اليماني، المعروف باسم الهوّاري، والملقب باسم "السّيد الصّغير"؛ ثمّ جدّ السّير إلى أن بلغ سجلماسة، وافتتاحها عنوة في 07 ذي الحجة من عام (296هـ/909م)، وفكّ قيد المهدي وابنه، وتسليم له الأمر قائلا لمن كان معه: "هذا مولايَ ومولاكم، قد أنجز الله له وعده، وأعطاه حقّه، وأظهر أمره"[25].

3). قيام الدّولة الفاطمية بالمغرب وتطلّعها لخلافة العالم الإسلامي:

لم تطل إقامة عبيد الله المهدي المؤقتة بمدينة رقادة الأغلبية، ساعة تخلصه من أسر بني مدرار في انتظار الفراغ له من بناء عاصمة جديدة تليق بمقامه في بلاد المغرب الإسلامي، ألا وهي مدينة "المهدية" المشيدة عام (297هـ/910م)، حيث كان موْضعها يُعرف قبل ذلك التّاريخ باسم "جزيرة المنار"[26]؛ إيذانا لنجاح مشروع دعوي جدير بالاحتذاء مستقبلا على غرار ما حدث في وقتٍ سابقٍ مع الدّعوة الشّيعية الزّيْدية بالمنطقة التّي أسفرت على قيام الدّولة الإدريسية بمدينتيْ فاس وتلمسان، والدّعوة الخارجية الإباضية التّي انبثق من رحمها دولة بني رستم الآنفة الذكر، والدّعوة الخارجية الصّفرية التّي أوجدت دولة بني مدرار في أقصى جنوب المغرب الأقصى؛ كما لم تكن الفتوحات الكبيرة التّي حقّقها عبد الله الدّاعي على أرض المغرب في وقت وجيز جدّا، مغرية للفواطم، وتحفيزهم على الاستقرار النّهائي بأرض المغرب الواسعة الأرجاء بقدر ما كانت أوّل خُطوة في رحلة أكثر إثارة، رحلة التّطلع لخلافة العالم الإسلامي بأسره، ومرحلة نقل الدّعوة الإسماعيلية من مرحلة السّرّ والكتمان، أو التُّقْية إلى مرحلة الجهر والإعلان[27].

ولذلك لن يُجدي نفعا في هذا المقام إعادة التّذكير بأبرز محطّات النّشاط السّياسي والعسكري، الذي خاضه الفواطم مشرقا، ومغربا في سبيل الإطاحة بخصومهم من بني العباس، ويكفي إلقاء إطلالة سريعة على البناء الهيكلي للدّعوة الإسماعيلية لدى الدّولة الفاطمية، التي استطاعت أن تتجاوز به نفوذها السّياسي العريض، وتعميم نشر دعوتها في كلّ بقاع العالم الإسلامي الوسيط من الهند شرقا إلى المغرب الأقصى غربا، ومن بحر قزوين شمالا إلى بلاد اليمن جنوبا من غير تمييز، فضلا عن أثر هذه الأخيرة المحسوس في تكوين بعض الحركات المناهضة للحكم العباسي، وقيام دول متتابعة بإيران كالدّولة البويهية (334–447هـ/945–1055م)، والدّولة الصّفوية في وقت لاحق، وتحوّل إيران بموجب ذلك إلى معقل حصين لهذه الدّعوة على مرّ قرون طويلة من الزّمن[28].

أو كما لخصّ ذلك الخليفة الفاطمي الرّابع "المعزّ لدين الله معد أبي تميم" (341-365)هـ* بعظمة لسانه في إحدى خطاباته الموجهة للحسن القُرْمُطي، حيث جاء فيها على وجه الخصوص: "ومع هذا فما من جزيرة** في الأرض، ولا إقليم إلاّ ولنا فيه حجج***، ودعاة إلينا، ويدلّون علينا بتصاريف الألسن****، وفي كلّ جزيرة وإقليم رجال منهم يفهمون، وعنهم يأخذون، وهو قول الله عزّ وجلّ: وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم"[29].

ومهما كان من أمر، فإنّ الغموض الذي كان يحوم حول التّنظيم الدّاخلي للدّعوة الإسماعيلية قبل قيام الدّولة الفاطمية بالمغرب، قد تلاشى شيئا فشيئا بفعل الخطوة الجريئة التّي اتخذها الفاطميون في هذا الصّدد، والمتمثّلة في نقل الدّعوة من السّرّ إلى العلن، وتخصيصها ببناء هيكلي محكم التّنظيم، يتلخص هرمه الإداري في عشرة مراتب أساسية على حدّ ما أورده الدّاعي أحمد حميد الدّين، المتوفى عام (411هـ/1020م) في كتابه الموسوم بـ "راحة العقل"، هي على حسب ترتيبها من الأعلى درجة إلى أدناها، دون الخوض في تفاصيل وظيفة كلّ واحد منهم، كالآتي: النّاطق، والأساس، والإمام، والباب (داعي الدّعاة)، والحجة، وداعي البلاغ، والدّاعي المطلق، والدّاعي المحدود، والمأذون المطلق، والمأذون المحدود[30].

فحسب الكرماني دائما، كان الباب يتصدّر قائمة الدّعاة، ويعمل تحت يديه اثنا عشر (12) حُجة، منتشرون في أقسام الأرض المعمرة الإثني عشر (12)، حيث يُسمّى كلّ واحد منها لديهم باسم "الجزيرة" كما سلفت الإشارة من قبل، وكلّ حُجّة يعمل بين يديه ثلاثون داعية (30)، وكلّ داعية منهم يشرف بدوره هو الآخر على أربعة وعشرين (24) مأذونا[31].

4). العوامل المساعدة على نجاح المشروع السّياسي الإسماعيلي بالمغرب:

تعدّدت، وتنوعت العوامل المساعدة على نجاح المشروع السّياسي الإسماعيلي في بلاد المغرب، غير أنّه بالوسع تلخيصها في العوامل الذاتية الكامنة في الدّعوة ذاتها، والعوامل الخارجية، التّي يُقصد بها عوامل المناخ العام، المحيط بتلك الدّعوة آنذاك:

أ). العوامل الذّاتية:

- الكفاءة العالية للدّعاة: رغم كثرة نقاط الظلّ التّي اكتنفت حياة ونشاط الدّعوة الإسماعيلية قبل مرحلة العَلَن، اتقاءً لبطش بني العباس وعُمّالهم، والظّفر بهم، إلاّ أنّ مردودها الميداني النّاجح، وكذا تسليط بعض الضّوء عليهم في كتابات الإسماعيلية خلال المرحلة اللاّحقة (مرحلة العلن)، بيّنت أنّ منصب الدّاعي لا يشغله إلاّ رجالا أكْفاء، لهم من

العلم الظّاهر والباطن باع طويل، وإخلاص كبير للدّعوة، وزهد في الدّنيا وملاذها، وحصافة العقل، وما إلى ذلك من الأخلاق الفاضلة في سبيل اختصار طريقهم إلى قلوب النّاس[32].

- الانضباط ودّقة التّنظيم: لا شكّ أنّ نظرة متفحصة فيما أورده الكرماني حول هيكلة دعاة الإسماعيلية بشكل مقتضب، كافية لإعطاء فكرة واضحة المعالم حول ما كانت تتمتّع به الدّعوة من تنظيم محكم، وبعد نظر ثاقب.

- التُّقْية، وتجنّب المواجهة المباشرة مع الخصوم السّياسيين: إذ يقول النّويري في هذا الصّدد ما نصّه بالحرف الواحد: "وكانوا [يعني الإسماعيليون في المشرق] أنفذوا إلى المغرب رَجُلان أحدهما يُعرف بالحلواني، والآخر بأبي سفيان، وتقدموا لهما بالوصول إلى أقصى المغرب، والبُعد عن المدن، والمنابر"[33].

- الحيطة والحذر: وهو الإجراء الذي يمكن أن يُستشفّ من مُرافق الدّاعي الذي يلاحقه عن قرب، أو عن بعد تبعا لطبيعة الظّروف، حتّى ما إذا وقع له مكروها، حلّ محلّه، مثل ما وقع مع عبد الله الدّاعي، الذي رافقه إلى بلاد المغرب رجلا من اليمن، غير أنّ هذا الرّجل كانت له أُمًا لم تصبر على فُراقه، فاستدعي إلى اليمن مرّة ثانية حتّى تقرّ عين والدته، وعُوّض بشخص ثانٍ، أصبح يُلقب باسم "الهوّاري"، وباسم "السّيد الصّغير"، وهو أحد الشّخصان اللّذان كلّفهما عبد الله الدّاعي بنيابته على مدينة تيهرت عاصمة الدّولة الرّستمية في عقب الاستيلاء عليها عام (296هـ/909م).

- انتقاء الظّرف والجمهور المناسب لبثّ الدّعوة: إذ يقول النّويري في هذا المقام: "إِذْهبا [الخطاب موجّه للحلواني ورفيقه أبي سفيان] فالمغرب أرض بور، فاحرثاها، وأكثرَا قلب الأرض حتّى يأتي صاحب الزّرع"[34].

ب). العوامل الخارجية:

- ضعف الدّولة المركزية وانحصار نفوذها السّياسي ببلاد المغرب: كانت هناك أربع دول تتقاسم حكم المغرب على عهد عبد الله الدّاعي، أقواها، وأكثرها تنظيما ونفوذا هي الدّولة الأغلبية بأفريقية، المدعومة بالعباسيين في المشرق، والدّولة الرّستمية في المغرب الأوسط، والدّولة الإدريسية المدعومة بالدّولة الأموية الأندلسية في شمال المغرب، ودولة بني مدرار في جنوب المغرب الأقصى.

وإذا ما بدَا المغرب من ناحية الخارطة السّياسية مشغولا بكامله، فإنّه في واقع الأمر غير ذلك، كما يمكن أن يستشف بوضوح من حرب عبد الله الدّاعي مع تلك الدّول، فإذا كان هذا

الأخير داعية محنكا بلا شك، فإنّه لم يكن بالرّجل العسكري المتمرّس، ولا يحوز جيشا نظاميا محكم التّدريب، ومع ذلك تم الإطاحة بالأغالبة في عقر دارهم على إثر هجمات، وانتصارات متتالية، كما قضى على الدّولة الرّستمية بهجمة واحدة على عاصمتها تيهرت، مثلها في ذلك مثل دولة بني مدرار، ممّا يؤكّد أنّ الدّولة المركزية في المغرب آنذاك مجرّد منطاد منفوخ بالهواء، وأنّ نفوذها في كثير من الأحيان لا يتجاوز حدّ أسور العاصمة.

ولذلك فإنّ قول حُجَّاج كتامة الذين قدموا بعبد الله الدّاعي من المشرق، حين سألهم عن علاقتهم بالحكم المركزي، وأجابوه قائلين، بأنّ لا سلطان له علينا، وأنّ ولاّته يهادنوهم خوفا من سطوتهم علينا، قول صادق، كما أكّدته الأحداث التّالية بوضوح.

- إخلاص قبائل كتامية للدّعوة الإسماعيلية، ونصرتهم لها بأموالهم، وأنفسهم، حيث كانت جميع فتوحات، وانتصارات عبد الله الدّاعي على كاهل تلك القبائل، الشّيء الذي دفع به إلى تقريب وجهائها منه، ومنحهم الأعطيات الثّمينة وتوليتهم المناصب الرّفيعة في المناطق المفتوحة، كما سبق التّلميح إلى ذلك من قبل. إذ يقول النّويري بهذا الخصوص: "ولهذه الدّولة [يعني الدّولة الفاطمية] أسباب، ولوازم، وشيعة، هم الذين مهدّوا لهم البلاد، ووطّنوا الممالك، وهزموا الجيوش، وفتحوا الأقاليم، وأبادوا الأبطال، حتّى انتصر الملك لملوك هذه الدّولة، وتسلّموه عضوّا، عضوّا"[35].

- تسرّب الدّعوة وتغلغلها في معسكر الخصم (معسكر بني الأغلب)، حيث كان فتح مدينة ميلة الحصينة من طرف عبد الله الدّاعي بمساعدة بعض أهلها، الموالين للدّعوة الإسماعيلية، وهو الأمر ذاته تكرّر مع فتح مدينة بلزمة، وكذلك مدينة الأربس، التّي فُتحت صُلحا؛ والأكثر من ذلك أنّ القاضي النّعمان يذكر أنّ الأمير الأغلبي عيّن على قسطيلة، معقل الدّعوة الإسماعيلية في المغرب، واحدا من أقربائه أيام عبد الله الدّاعي، وطلب منه أن يحكمهم بحكم "العُمَرَيْن"[36]، كناية عن الحكم العادل، فردّ عليه ذلك الوالي من حينه بأنّه سيحكمهم بحكم عليّ، فأجازه لأن يحكمهم بما يراه مناسبا لذلك.

- تضمر العامّة من الأوضاع المزرية التّي آل إليها سكان المغرب، حيث يُلاحظ التّمزّق السّياسي إلى أربع دويلات؛ والتّعدد المذهبي بين سنّة أهل المدينة، وبقايا سنة أهل الشّام، وخوارج إباضية، وخوارج صفرية، وشيعة زيدية؛ والتّدخل الأجنبي في الشّأن المغربي الدّاخلي، المتمثل في التّدخل الأموي الأندلسي على مستوى شمال المغرب الأقصى، وسواحل غرب المغرب الأوسط من جهة، ومن جهة ثانية الدّولة العباسية، الدّاعمة للأغالبة في سبيل قطع

الطّريق على الأمويين، والأدارسة، وبقية الخصوم الذين ينصبون لها العداء، وما أسفر عليه من لا استقرار، ونشوب بؤر توتّر كثيرة بالمنطقة؛ تعسّف بعض الولاّة وإرهاقهم لكاهل الرّعية برسوم وضرائب ما أنزل الله بها من سلطان، كما يُفسر ذلك ثورة الدّراهم في نهاية حكم الدّولة الأغلبية، المندلعة عام (275)هـ في ظلّ حكم الأمير إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب على سبيل المثال لا التّخصيص والحصر[*].

هذا الأمير الذي اضطرته حسن سيرة عبد الله الدّاعي مع أتباعه إلى القيام بعمل موازٍ، سنة (289)هـ سمّاه باسم "سنة العدل"[**]، ومفاده كما جاء عند ابن عذارى أنّه: "لمّا استقام أمر أبي عبد الله الدّاعي بكتامة، أراد إبراهيم بن أحمد أن يُرضي العامّة، ويستميل قلوب الخاصّة بفعله، فردّ المظالم، وأسْقط القَابلات، وأخذ العشر طعاما، وترك لأهل الضّياع خراج سنة، وسمّاها سنة العدل، وأعتق مماليكه، وأعطى فقهاء القيروان، ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرّقها في الضّعفاء، والمساكين، فاسْتوكلت، وأُعطيت من لا يستحقها"[37].

الشّيء الذي جعل الرّعية تتوق للتّغيير والوقوف إلى جنب كلّ من يحاول إصلاح هذا الوضع المتردي بصرف النّظر عن مَنْ يكون، فما بلاك بشخص طبقت شهرته قبائل كتامة بحسن سيرته وتدبيره، وإرغام الأمراء على التّوبة، خوفا من انقلاب رعيتهم عليهم[38].

- استمرار نشاط الدّعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب من غير توقف، ولا فتور منذ دخول الدّاعيتين (الحلواني، وأبي سفيان) عام (145هـ/761م) إلى غاية مجيء عبد الله الدّاعي من المشرق عام (280هـ /893م) بالرّغم من عزوف مصادر تلك الفترة عن تفصيل ذلك؛ حيث يمكننا استخلاص منها نتيجة في منتهى الأهمية، ألا وهي ترسخ الدّعوة الإسماعيلية لدى سكان بعض قبائل المغرب قبل حلول عبد الله الدّاعي، كما يؤكد ذلك بوضوح وقوف هذا الأخير على نفر كتامة وهم يتذاكرون فضائل أهل البيت بمنن في عقب انتهاء موسم الحج من جهة، ومن جهة ثانية، مسار عبوره من أفريقية إلى كتامة، الذي جاء محاذيا للحواضر الأغلبية على مشارف الصّحراء بجنوب تونس في موطن جميع محطّاته كانت تحت سيطرة المتشيعين للدّعوة الإسماعيلية بالمغرب (الخارطة: 02).

5). أثر المهدوية في تاريخ الفكر السّياسي ببلاد المغرب خلال القرون الوسطى:

استطاعت الدّولة الفاطمية بفضل الدّعوة الإسماعيلية، أن تحقّق عمرا طويلا، نادرا ما بلغته بعض دول الإسلام قبلها، كالدّولة العباسية، وبعدها كالدّولة العثمانية؛ واتساع نفوذها السّياسي مشرقا ومغربا، حتّى شمل بلاد المغرب بأسرها، والدّيار المصرية، وبلاد الشّام،

واليمن، والكثير من الثّغور، والعواصم الإسلامية الأخرى إلى أن بدت خارطتها السّياسية في شكل خلافة حقيقية، مناهضة للخلافة العباسية بالعراق[39].

ولذلك ليس من الغرابة في شيء، أن يلجأ بعض دعاة السّياسة في بلاد المغرب الإسلامي خلال فترة القرون الوسطى من اقتباس بعض مبادئ النّظرية السّياسية الإسماعيلية، وتطبيقها في مشاريعهم الدّعائية، حيث كان من جملة تلك المشاريع، مشروع محمد بن تومرت مهدي الموحدين*، الذي تمكن من تأسيس أقوى دولة أمازيغية في تاريخ المغرب الوسيط، وتمكنها من توحيد حكم بلاد المغرب والأندلس على حدّ سواء طيلة قرن ونيف**، بعيدا عن تأثرات، وضغوط المشرق على خلاف ما كان معتادًا في الحياة السّياسة ببلاد المغرب قبل ذلك التّاريخ.

والأكثر من ذلك، هو استمرار دعوته راسخة في الدّولة الحفصية بتونس***، أحد الدّويلات الثّلاث (الحفصية، والزّيانية، والمرينية)، المنبثقة من رحم الدّولة الموحدية نفسها في غضون القرن (07هـ/13م)، بعدما تنصّل منها أمراء الدّولة الموحدية في عهد الخليفة المأمون أبي العلا إدريس بن يعقوب المنصور[40]، واستمرارها لديهم إلى غاية نهاية مرحلة القرون الوسطى هناك، كما هي مجسدة بوضوح في شعارات نقودهم الذهبية.

وإلى جانب هذا المشروع الطّموح، ثمّة ثلاثة مشروعات أخرى أقلّ أهمية، يمكن الاكتفاء بذكرها في هذا المقام بشكل سريع في ضوء ما ذكره محمد بن إبراهيم الآبلي، المتوفى بفاس عام (757هـ/1357م)* لتلميذه النّجيب عبد الرّحمن بن خلدون بشأنها، منها مشروعان قام بالمغرب الأقصى من لدن دعاة محلّيين، وواحد بتلمسان على يد داعية قدم خصّيصا من كربلاء لهذا الغرض.

أمّا أقدم المشاريع الثّلاث فقد كان في عقد تسعينات القرن (07هـ/13م) على يدي رجل يُسمّى العباس، أدعى بأنّه مهدي الفاطميين المنتظر، فتبعه خلق كثير من عامّة غمارة، واستطاع أن يدخل مدينة فاس المغربية عنوة، إلاّ أن أمره لم يدم طويلا، حيث افتضح أمره، وقتل غيلة ببلد المزمة[41].

وثانيها، صاحبه مشرقيا من أهل البيت بكربلاء العراق، حيث قدم في أتباع كثر مع حجاج المغرب، الذين كان الآبلي واحدا منهم إلى أن نزل هذا الدّاعي برباط سيدي بومدين في الضّاحية الجنوبية الشّرقية من مدينة تلمسان، وهي يومئذ محاصرة من طرف المرينين، حصارا خانقا في الفترة الزّمنية، الممتدّة بين سنتي (698–705)هـ*، لكن لمّا أطلع على الوضع

عن كثب رأى بأنّ الظّرف غير ملائم تماما، فأمر من حينه أتباعه بالرّجوع أدراجهم قائلا لهم: "أرجعوا فقد أزْرى الغَلَط، وليس هذا الوقت وقتنا"[42]، وعادوا من حيث أتوا.

فيما كان المشروع الثّالث والأخير مستهل القرن (08هـ/14م) على يدي رجل متصوّف يُعرف باسم التُّويْزري*، حيث ظهر أمره أوّل مرّة برباط ماسة، بعدما ادّعى أنّه المهدي الفاطمي المنتظر هو الآخر، وتبعه الكثير من أهل السّوس بجنوب المغرب الأقصى، لاسيما من قبيلتيْ ضالّة، وكزولة، واستفحل أمره هناك إلى درجة أنّ رؤوسا قبيلة المصامدة العتيدة هابته، وخشيت أن ينفذ تأثيره إلى رعيتها، فاجتمعوا فيما بينهم لتدارس أمره، وخلصوا في نهاية المطاف إلى دسّ له مَن قتله، والقضاء عليه[43].

خاتمة:

وصفوة القول، فإنّ "المهدوية" كمشروع سياسي، لم تكن حِكرًا على الدّعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب، حيث سبقتها، ولحقت بها دعوات شيعية، وخارجية مماثلة، لكن الكثير منها لم يفلح في تحقيق مبتغاه بالقدر الذّي حقّقته هذه الدّعوة بعد صراع مرير مع خصومها المتعنتين، حيث انتهت في آخر الأمر إلى تكوين دولة كبيرة تُعد من أوسع دول الإسلام نفوذا، وأطولها عمرا على الإطلاق.

الهوامش:

* أكثر تفاصيل حول النّظرية المهدوية في التّراث الإسلامي بشكل خاص، والتّراث الإنساني بشكل عام من أقدم العصور إلى الفترة المعاصرة، يُنظر على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر: ابن خلدون (أبو زيد عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون)، مقدمة بن خلدون، منشورة من غير تحقيق، دار الجيل، دون ذكر لا رقم الطّبعة ولا تاريخها، ص ص 344–364؛ DARMESTETER (JAMES), Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'à nos jours, Editeur LEROUX Ernest, Paris, 1885.

* توصّل فرحات الدّشراوي، مُحقّق كتاب افتتاح الدّعوة للقاضي النّعمان من خلال مقارنته بين النّصوص التّاريخية، المدوّنة في الفترة الزّمنية الممتدّة ما بين القرنين (04هـ/10م، و08هـ /14م) بخصوص الدّعوة الفاطمية في بلاد المغرب إلى أنّ جميع تلك الرّوايات بصرف النّظر عن مذهبها (سنّية كانت، أو شيعية، أو خارجية)، وعصر تدوينها، كابن حمّاد الصّنهاجي، وابن خلدون، وابن عذارى، وابن شدّاد الصّنهاجي، وابن الخطيب، وابن زكريا، وابن الأثير، والمقريزي، وابن تغري بردي، والنّويري، وغيرهم؛ جميعها قد أخذ من منبعٍ واحدٍ، ألا وهو: أبو حنيفة النّعمان محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون التّميمي، المتوفى عام (363هـ/974م)، الذّي أنهى تدوين كتاب افتتاح الدّعوة المذكور في عام (346هـ/957م)، وكان ذلك بوِساطة الرّقيق القيرواني، الذّي أدرك القاضي النّعمان حيّا قبل وفاته عام (416هـ/1025م). أكثر تفاصيل ينظر: القاضي النّعمان (أبو حنيفة)، افتتاح الدّعوة، تحقيق فرحات الدّشراوي، نشر الشّركة التّونسية للتّوزيع بتونس بالاشتراك مع ديوان المطبوعات الجامعية في الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1986م، ص د. وإلى جانب مصدر أبي حنيفة النّعمان الأساسي، يمكن إضافة مصدر ثانوي آخر، ألا وهو مصدر: اليماني (محمد بن محمد) من أهل القرن (04هـ/10م)، الذّي رافق أول خلفاء الدّولة الفاطمية في رحلته الطّويلة من المشرق إلى أقصى بلاد المغرب، حيث جاء مُؤلَّفه في شكل مذكرات خاصّة، تشبه إلى حدّ بعيد مذكرات البيذق الذّي صاحب هو الآخر بدوره مهدي الموحدين ببلاد المغرب دائما خلال العقدين الثّاني والثّالث من القرن (06هـ/12م)؛ إذ يُسَجل فيهما تفاصيل الرّحلة الشّاقة، وما لقاه مهدي الفاطميين، ومهدي الموحدين من صِعاب وأتعاب، قبل أن ينتهي

بهما المطاف في جنوب المغرب الأقصى، حيث وقع مهدي الفاطميين هناك في أسر بني مدرار الخوارج بسجلماسة، فيما عاد الآخر إلى مسقط رأسه، والاعتصام بجبل "إجليز" المنيع، استعدادا لمنازلة ومقارعة خصومه من الملثمين (أي المرابطون) في قتٍ لاحقٍ. يقارن بين المصدرين: اليماني (محمد بن محمد)، "سيرة جعفر الحاجب"، نشر المستشرق إيفا نوف في: مجلّة كلّية الآداب بجامعة القاهرة، المجلّد 04، الجزء الثّاني، ديسمبر 1963م؛ أو المخطوطة المصوّرة منه، الموسومة بـ: سيرة الحاجب جعفر بن عليّ وخروج المهدي من سلمية ووصوله سجلماسة، دار الكتب المصرية، رقم الجرد 11546؛ الصّنهاجي (أبو بكر بن عليّ المكنّى بالبيذق)، كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطّبعة الثّانية، 1986م.

[1] شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشّمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، نشر الدّار التّونسية للنشر بالاشتراك مع الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع بالجزائر، 1969م، الجزء الثّاني، ص ص 11–36.

[*] أكثر تفاصيل حول الإسماعيلية، ينظر على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر: برنارد (لويس)، أصول الإسماعيلية، تعريب خليل أحمد جلّو، وجاسم محمد الرّجب، القاهرة، 1947م؛ إحسان إلهي ظهير، الإسماعيلية تاريخ وعقائد، نشر إدارة ترجمان السّنة، لاهور، باكستان، (بدون ذكر تاريخ الطّبع)؛ محمد السّعيد جمال الدّين، دولة الإسماعيلية في إيران، نشر الدّار الثّقافية للنّشر، القاهرة، الطّبعة الأولى، 1999؛ أمير مهنا وعليّ خريس، جامع الفرق والمذاهب الإسلامية، نشر المركز الثّقافي العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، 1992م، ص ص 16–19.

[2] مرمول (محمد الصّالح)، السّياسة الدّاخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص 28.

[3] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص 26؛ النّويري (أحمد بن عبد الوهاب)، الدّولة الفاطمية ببلاد المغرب (296–361هـ /909–972م)، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، نشر مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المملكة المغربية، 1988، ص 22.

[4] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص ص 26–27؛ النّويري، مصدر سابق، ص ص 22–23.

[5] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص 27.

[6] نفسه، ص 27؛ النّويري، مصدر سابق، ص ص 22–23.

[7] القاضي النّعمان، مصدر سابق ، ص ص 28–29.

[8] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص ص 29-30.

[9] مرمول، مرجع سابق، ص ص 32–33.

[*] أكثر تفاصيل حول أصل هذا الدّاعي، وظروف اتصاله بحُجّاج المغرب، وتفاصيل مَقْدَمه إلى شرق المغرب الأوسط (الجزائر)، ينظر على سبيل المثال لا التّخصيص والحصر: القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص ص 30-42؛ النّويري، مصدر سابق، ص ص 24–41؛ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ. لفي بروفنسال، نشر دار الثّقافة، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1980م، الجزء الأوّل، ص ص 124–129؛ ابن حمّاد، (أبو عبد الله محمد بن عليّ الصّنهاجي)، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، نشر المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص ص 19–21؛ مرمول، مرجع سابق، ص ص 34–55.

[10] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص 47.

[11] النّويري، مصدر سابق، ص 40.

[12] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص 49.

[13] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص ص 54–55، 79-80؛ النّويري، مصدر سابق، ص ص 27–29.

[14] نفسه، ص 80؛ النّويري، مصدر سابق، ص 29.

[15] الرّقيق القيرواني، صاحب كتاب تاريخ إفريقية والمغرب، الذي ضاع جلّ كتابه، ولم يبق منه غير القسم المتعلّق بتاريخ القرنين (01–02هـ) من تاريخ المغرب الإسلامي، ينظر النّسخة المحققة: الرّقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب (قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأوّل إلى أواخر القرن الثّاني هجري)، تحقيقي المنجي الكعبي، نشر الدّار العربية للكتاب، تونس، الطّبعة الثّانية، 2005؛ أمّا بخصوص موضع المعلومة فينظر: النّويري، مصدر سابق، ص 31.

[16] النّويري، مصدر سابق، ص 31.

[17] القاضي النّعمان، مصدر سابق، ص 109؛ النّويري، مصدر سابق، ص 35.

[18] نفسه، ص 117؛ النّويري، مصدر سابق، ص 35.

[*] يمكن الرّجوع في هذا الأمر إلى نصّ رسالة الأمير الأغلبي لعبد الله الدّاعي، وردّ هذا الأخير عليها لدى القاضي النّعمان، والنّويري، القاضي النّعمان، مصدرسابق، ص ص 54–55.

[19] نفسه، ص 135؛ ابن عذارى، مصدرسابق، الجزء الأوّل، ص ص 147-149.

[20] القاضي النّعمان، مصدرسابق، ص 53.

[21] القاضي النّعمان، مصدرسابق، ص ص 135، وما بعدها (القسم الثالث، ومستهل القسم الرّابع من ذات المصدر)؛ النّويري، مصدر سابق، ص ص 37–38؛ ابن عذارى، مصدرسابق، الجزء الأوّل، ص ص 149–152؛ مرمول، مرجع سابق، ص ص 46–49.

[*] أكثر تفاصيل حول مهدي الفاطميين يمكن مراجعة على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصر: القاضي النّعمان، مصدرسابق، ص ص 157– 65؛ ابن حمّاد الصّنهاجي، مصدرسابق، ص ص 17–29؛ حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف، عبيد الله المهدي إمام الشّيعة الإسماعيلية ومؤسس الدّولة الفاطمية ببلاد المغرب، القاهرة، 1947م.

[22] القاضي النّعمان، مصدرسابق، ص 269؛ ابن عذارى، مصدرسابق، الجزء الأوّل، ص 152؛ ابن حمّاد الصّنهاجي، مصدرسابق، ص 21.

[23] النّويري، مصدرسابق، ص 41.

[24] ابن عذارى، مصدرسابق، الجزء الأوّل، ص 153.

[25] نفسه، الجزء الأوّل، ص 153؛ ابن حمّاد الصّنهاجي، مصدرسابق، ص 21.

[26] ابن حمّاد الصّنهاجي، مصدرسابق، ص 21.

[27] محمد السّعيد جمال الدّين، مرجع سابق، ص 44.

[28] نفسه، ص 39.

[*] أكثر تفاصيل حول سيرته ينظر على سبيل الذكر: ابن حمّاد الصّنهاجي، مصدرسابق، ص ص 48–55؛ النّويري، مصدرسابق، ص ص 58-75.

[**] مفهوم الجزيرة في هذا المقام ليس بمعنى قطعة الأرض الصّغيرة التّي يحيط بها البحر من كلّ الجهات، كما هو معروف في المدونات الجغرافية الحديثة، وإنّما يُقصد بها مناطق الأمم، كجزيرة البربر، وجزيرة التّرك، ونحو ذلك.

[***] جَمْع حجج في هذا المقام لا يعني البيان والدّليل كما قد يتوهم البعض، وإنّما يُقصد به رِجالا دعاة ينعتون باسم "الحجة"، كما هو مذكور في موضعه من المتن.

[****] يعني باختلاف لغات الشّعوب والأمم.

[29] المقريزي (تقيّ الدّين أحمد)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدّين الشّيال، القاهرة، 1967، ص 260؛ محمد السّعيد جمال الدّين، مرجع سابق، ص 43.

[30] الكرماني (أحمد حميد الدّين)، راحة العقل، تحقيق وتقديم محمد كامل حسين، ومحمد مصطفى حلمي، القاهرة، 1952م، ص ص 130–138؛ محمد السّعيد جمال الدّين، مرجع سابق، ص 40.

[31] الكرماني، مصدرسابق، ص ص 130-138.

[32] محمد السّعيد جمال الدّين، مرجع سابق، ص 42.

[33] النّويري، مصدرسابق، ص 22.

[34] النّويري، مصدرسابق، ص ص 19، 22.

[35] نفسه، ص 13.

[36] يلمّح في هذا المقام لحكم الخليفة عمر بن الخطاب (رض الله عنه)؛ وإلى حكم والي الأمويين على المدينة المنورة، عمر بن عبد العزيز (رحمه الله).

[*] أكثر تفاصيل حول هذه الثّورة الاحتجاجية، ينظر على سبيل المثال: ابن عذارى، مصدرسابق، الجزء الأوّل، ص ص 120–121.

[**] تسمية هذه المبادرة بهذا الاسم، هو اعتراف ضمني بالظّلم، والجور الذي سبقها، كما أكّدته نهاية هذا العمل الخيري الذي لم يذهب إلى مستحقّيه بسبب كثرة الفساد الذي كان ينخر الدّولة الأغلبية على جميع الأصعدة؛ أضف إلى ذلك أنّ هذه المبادرة، قد كانت مبادرة ظرفية، سرعان ما ساءت الأوضاع بعدها.

[37] ابن عذارى، مصدرسابق، الجزء الأوّل، ص ص 131–132.

[38] نفسه، الجزء الأوّل، ص 131.

[39] النّويري، مصدرسابق، ص 13.

[*] أكثر تفاصيل حول المهدي بن تومرت، وسيرة دعوته في المغرب الإسلامي خلال الرّبع الأوّل من القرن (06هـ/12م)، ينظر على وجه الخصوص: البيذق، مصدر سابق؛ نفسه، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، نشر دار المنصور للطّباعة والوراقة، الرّباط، 1970م، ص ص 12-13. BOURUIBA (Rachid), IBN TUMART, Société nationale d'édition et de diffusion, Alger, Deuxième édition, 1982.

أمّا بخصوص فكر ابن تومرت، فينظر كتابه الذائع الصّيت: "أعزّ ما يُطلب"، الذي طُبع طبعات كثيرة.

[**] أكثر تفاصيل حول التّاريخ السّياسي للدّولة الموحدية بالمغرب والأندلس، ينظر على سبيل المثال: هوبكنز (ج، ف، ب)، النّظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، عرّبه عن الإنجليزية أمين توفيق الطّيبي، الدّار العربية للكتاب، ليبيا / تونس، 1980، ص 159-192؛ أمبريوس هويثي ميرندا، التّاريخ السّياسي للإمبراطورية الموحدية، تعريب عبد الواحد أكمير، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، الطّبعة الأولى، 2004، ص 182؛ ابن صاحب الصّلاة (عبد المالك)، المنّ بالإمامة، تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التّازي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّالثة، 1987م.

[***] ينظر بشأنها المصدر الآتي: ZERKECH (Mohamed Ben Brahim), Chronique des Almohades et des Hafçides, Traduit de l'Arabe par: FAGNAN (E), Imprimerie Adolphe Brahms, Constantine, 1895.

[40] كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلّف أندلسي مجهول، حققه سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، نشر دار الرّشاد الحديثة، الدّار البيضاء، المملكة المغربية، الطّبعة الأولى، 1979م، ص 164.

[*] ينظر ترجمته عند: ابن خلدون (أبو زكريا يحيّ بن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون)، كتاب بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، نشر مطبعة بيير فونطانا الشّرقية، الجزائر، 1903م، الجزء الأوّل، التّرجمة رقم: 66، ص 57.

[41] ابن خلدون (عبد الرّحمن)، مقدمة ابن خلدون، مصدرسابق، ص 363.

[*] أكثر تفاصيل حول هذا الحصار المرير، يمكن مراجعة على سبيل المثال: ابن أبي زرع (أبو الحسن عليّ بن عبد الله الفاسي)، كتاب الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، تصحيح وترجمة كارل يوحن تورنْبرغ، نشر دار الطّباعة المدرسية، أوبسالة، 1843م، ص ص 267–268.

[42] ابن خلدون (عبد الرّحمن)، مقدمة ابن خلدون، مصدرسابق، ص 363.

[*] نسبة إلى مدينة توزر التّونسية بصيغة التّصغير.

[43] ابن خلدون (عبد الرّحمن)، مقدمة ابن خلدون، مصدرسابق، ص 363.